

بلاغة التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتماثلة من خلال ملاك التأويل للغرناطي.

Rhetoric of definition and indefinition of similar Qur'anic vocabulary through Malak Ettaewil by al-Gharnati.

ط/د بلال بن زهير *

أ/د لخضر حداد *

تاريخ النشر: 2022/05/01	تاريخ القبول: 2022/01/19	تاريخ الإرسال: 2021/12/21
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يهدف البحث إلى دراسة موضوع التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتماثلة وأثرهما في المعنى، من خلال كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي من أجل بيان أهم أوجه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وإبراز أثرهما في الكشف عن لطائف القرآن الكريم وفي فهمه وتدبر معانيه.

فجمعت بعض النماذج من المفردات القرآنية المتماثلة التي وقع فيها التعريف والتنكير، متسائلا عن ضابط تعريف وتنكير المفردتين المتماثلتين؟ وهل لتعريفها وتنكيرها أثر في المعنى؟

الكلمات المفتاحية: التعريف، التنكير، المفردات القرآنية، المفردة، الغرناطي.

المؤلف المرسل: بلال بن زهير b.benzahrir@univ-alger.dz

* مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة 2.

* جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة . قسم اللغة والحضارة. b.benzahrir@univ-alger.dz

* جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة ، lakhdar.dz@gmail.com

Abstract:

The research aims to study the subject of definition and indefinition of similar Qur'anic vocabulary and their effect on meaning, through the book of Malak Ettaewil by Ibn al-Zubayr al-Gharnati, in order to clarify the most important aspects of the rhetorical miracles of the Holy Qur'an, and highlight their impact on revealing the divisions of the Holy Qur'an and in its understanding and contemplate its meanings. So I collected some examples of similar Qur'anic vocabulary that the definition and indefinition occurred in. He wondered about the requirements for defining and indefining the two similar terms? Does defining and indefining it have an effect on the meaning?

Key words: definition, Indefinition, vocabular Qur'anic, vocabulary, al-Gharnati.

*** **

. مقدمة:

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه العظيم على رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فأعجز العرب ببيانه، وهالهم برهائه، فعجزوا عن مجاراته وضعفوا عن محاكاته، فعظم عليهم شأنه، فأصبحوا مهوَّرين ببلاغته، حائرين من سياقه. ومما زاد في حيرتهم، أن كلمات القرآن الكريم كانت معروفة لديهم، شائعة بينهم، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، حتى قال قائل منهم، واصفا القرآن الكريم وصفًا دقيقًا فقال: "فو الله ما فيكم أعلم بالأشعار مني ... و والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أَعْلَاهُ، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته"¹.

ومن ثم صرف كثير من العلماء جهودهم إلى معرفة أسباب ذلك العجز، وتنوعت آراؤهم في ذلك، ولكنهم أجمعوا على أن أظهر وجوه إعجازه في بيانه وبلاغته، والتي منها بلاغة التعريف والتنكير، وكما هو معلوم أن موضوع التعريف والتنكير، موضوع واسع متشعب، وعليه اخترت موضوع التعريف والتنكير في المفردات القرآنية وأثرهما في المعنى، من خلال كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، فجمعت بعض النماذج القرآنية من المفردتين المتماثلتين وذكرت توجيه الغرناطي لهما مع ذكر أثرهما في المعنى. ويهدف البحث إلى:

- بيان وجه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم من خلال المفردة القرآنية التي وقع فيها التعريف والتنكير.

- إبراز أثر التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتماثلة في المعنى، والكشف عن لطائف القرآن الكريم.

وعليه كانت منهجية البحث كالآتي:

-التعريف أولاً بالتعريف والتنكير والمفردة لغة و اصطلاحاً، مع بيان دواعي التعريف والتنكير، و ذكر الأغراض البلاغية لكل منهما..

-في الجانب التطبيقي للبحث قمت بذكر المفردتين التي وقع فيهما التعريف والتنكير مثل المفردتين:

"عليم- العليم"، " معروف- المعروف"، "بلد- البلد"... ثم ذكرت الأثر المترتب على التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتماثلة وأثرهما في المعنى، معتمداً في ذلك على كتاب ملاك التأويل، مع ذكر أقوال العلماء المعاصرين في ذلك.

2.2. تحديد المصطلحات والمفاهيم.

1.2.2. التعريف لغة واصطلاحاً:

التعريف لغة :

جاء في العين : "عرف : عرفت الشيء معرفة وعرفانا، وأمر عارف، معروف"²، والتعريف : " أن تصيب شيئاً فتعرفه إذا ناديت من يعرف هذا"³.

وورد أن : "العرفان : العلم، عرفه عرفة وعرفانا وعرفاًنا ومعرفة"، "وعارف يعرف الأمور، عرفه الأمر: أعلمه إياه، وعرفه به : وسمه، والتعريف : الإعلام"⁴.

من التعاريف اللغوية السابقة، نجد أن الجذر اللغوي للتعريف يدور حول: المعرفة، العرفان، العلم، الوسم، الإعلام.

التعريف اصطلاحاً : عرفه الشريف الجرجاني بأنه : "عبارة عن ذكر شيء تستلزم معرفته معرفة شيء آخر"⁵، لكن ابن مالك أشار إلى صعوبة وضع ضابط للمعرفة، فقال : "ومن تعرض لحجّ المعرفة عجز عن الوصول إليه دون استدراك عليه"⁶، ثم نراه يعلل هذه الصعوبة بقوله: "لأن من الأسماء ما هو معرفة "معنى "نكرة "لفظاً"، وعكسه"⁷.

وعليه فالتعريف الاصطلاحي للتعريف يدور حول : المعرفة والتميز عن الآخرين، وهو لا يبتعد كثيرا عن التعريف اللغوي.

2.2 التعريف : أنواعه وأغراضه البلاغية.

التعريف بالضمير:

والضمير إما للمتكلم أو المخاطب أو الغائب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ الأنفال: 31، والملاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر أكثر من ضمير، ظاهرا أو مستترا، إذ يتكرر في : سمعنا، نشاء، لقلنا... وهذه الضمائر للمعارف، جاءت لتظهر الفئة المعاندة المستكبرة، فتكلمت بلسانهم، وأشارت إليهم بالتحديد دون غيرهم، والغرض من ذلك لتفضيحهم وتُظهر، "فرط جهلهم، وشؤم جحدهم ستر على عقولهم قبح دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعد البرهان، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان"⁸.

ومن "عجيب بهتانهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام تحداهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفحموا"⁹، ثم بعد عجزهم أظهروا الضمير في "لقلنا" وهو خلاف الحقيقة، والمراد به توبيخهم وتقريعهم على ذلك.

التعريف بالعلمية :

للتعريف بالعلمية أغراض بلاغية عديدة، منها : المدح، الذم، التلذذ، والتعظيم... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ الاخلاص: 1، والغرض البلاغي هو: "الإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به"¹⁰، ومعنى ذلك؛ أن المسند إليه أحضر في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به لاقتضاء المقام له حيث إنه مقام بيان التوحيد وتقدير الوحدانية لله تعالى.

التعريف باسم الإشارة :

قد يأتي التعريف باسم الإشارة والغرض منه التقليل والإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴿٢٠﴾﴾ النجم: 20، وأسروا النجوى الذين ظلموا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَتَأْتُونَ

السحر وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ الأنبياء: 03، يقول القُشَيْرِي في تفسيره لهذه الآية: "لَمَّا عجزوا عن معارضته، وسقطوا عند التحدي، وظهرت عليهم حجته رجّموا فيه الفكر، وقسّموا فيه الظن فمرة نسبوه إلى السحر، ومرة وصفوه بقول الشعر، ومرة رموه بالجنون وفنون من العيوب"¹¹.

ومعنى ذلك أن قوله تعالى: ﴿هل هذا إلا بشر﴾، فإن التعريف بـ"هذا"، وفيه إشارة إلى الرسول الكريم الغرض من إشارتهم التقليل من مقام الرسول عليه الصلاة والسلام، فكأنهم قالوا أهذا الذي يدّعي الرسالة ما هو إلا بشر مثلكم فقط، وأيضا دل على الإنكار، لأن دليل الإنكار مجيء الاستفهام: "هل" وهو استفهام إنكاري غرضه إنكار حقيقة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

التعريف بالاسم الموصول :

"الموصولات كلها سواء أكانت اسمية أم حرفية أم مبهمة المدلول، غامضة المعنى، فلا بد لها من شيء يزيل إبهامها وغموضها، وهو ما يسمى: "الصلة"، فالصلة؛ هي التي تعين مدلول الموصول...وهي التي تعرف الموصول الاسمي"¹²، والتعريف بالاسم الموصول له أغراض ومعان عدة، ومن هذه المعاني التي تدل على زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْنَاهُ أَلَّا تِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ﴾ يوسف: 23 فإنه مسوق لتنزيه يوسف عليه السلام عن الفحشاء.

التعريف بالإضافة :

"إن التعريف بالإضافة يكون لأنه ليس للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع أخصر منه"¹³، "وللتعريف بالإضافة معان بلاغية كثيرة منها: التعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ

عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ الجن: 19، فالإضافة إلى الله سبحانه تشرّف ما بعده تشرّف"¹⁴.

التعريف بـ"أل" : يقسم علماء البلاغة والنحو "أل" التعريف إلى قسمين، الأول للعهد، والثاني للجنس، أما أغراض التعريف باللام، فقد قالوا: إنها تكون للإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ آل عمران: 36، أي: ليس

الذكر الذي طلبته امرأة عمران كالأنثى التي وُهبَت لها، وقد تكون اللام مفيدة للجنس والحقيقة كقولك: الرجل خير من المرأة، أي جنس الرجل خير من جنس المرأة"¹⁵، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ (البقرة: 13)، فهذه اللام يصح أن تكون لام العهد أي: آمنا كما آمن رسول الله ومن معه، ويصح أن تكون لام الجنس أي كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف؛ لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون في الإنسانية"¹⁶.

3. التنكير لغة واصطلاحا

1.3 لغة :

جاء في لسان العرب: "والنكرة إنكارك الشيء، وهو نقيض المعرفة، والنكرة: خلاف المعرفة"¹⁷، وجاء في العين: "والنكرة: نقيض المعرفة"¹⁸ وعرفها ابن فارس بقوله: " نكر: النون والكاف والراء أصل صحيح يدل على خلاف المعرفة التي: بقوله يسكن إليها القلب... والنكراء: الأمر الصعب الشديد".

من خلال ما سبق من التعريفات للتنكير نخلص إلى أهم ما ورد في الجذر اللغوي:

-الجهل وعدم المعرفة.

-النكرة نقيض المعرفة.

ب: اصطلاحا :

النكرة عند ابن جني: " ما لم تُخص الواحد من جنسه"¹⁹، أما ابن مالك فحده بقوله: "والنكرة ما سوى المعرفة"²⁰، وعرفها صاحب التعريفات بقوله: "ما وضع لشيء لا بعينه كرجل وفرس"²¹،

من خلال تحليل هذه الأقوال نستخلص أن النكرة عند أهل الاصطلاح هي:

ما لا يخص واحدا من جنسه؛ بمعنى لا تدل على شيء معين، فسواء كان حدها يرجع للمعنى أو لا فإن مغزاها يدور حول عدم الدلالة على حد معين من جنسه بالنسبة للمخاطب، وسر الاكتفاء بمفهوم المخالفة والمناقضة عند تحديد مفهوم التنكير، هو أن الاسم لا يخرج عن كونه إما معرفة أو نكرة.

2.3 التنكير أنواعه وأغراضه البلاغية :

تكثير المسند إليه:

يأتي المسند إليه نكرة "وحق المسند إليه أن يكون معرفة، لأنه المحكوم عليه الذي ينبغي أن يكون معلوماً، ليكون الحكم مفيداً، فالأصل في المسند إليه أن يكون معرفة، لكنه قد يأتي نكرة لإفادة الأفراد...أو النوعية"²²، ويخرج التكثير إلى معان بلاغية متعددة، كالتعظيم والتكثير معاً، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

﴿١﴾ فاطر:4، أي رسل ذو عدد كثير وآيات عظام، وأعمار طويلة"²³.

تكثير المسند :

ينكر المسند لأغراض بلاغية منها: "إفادة عدم العهد والحصر، التفخيم والتحقير والتهوين...ومن إرادة التفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة:02، فالتكثير هنا جاء للدلالة على فخامة هداية الكتاب وكمالها"²⁴ ولغرض التكثير ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾، فجاءت لفظة "رسل" منكراً، والتكثير فيها للتكثير، أي: عدد كثير من الرسل كذبوا من أقوامهم، مع أنهم أتوا بآيات ودلائل عظام على صدق رسالتهم"²⁵.

4- المبحث الثالث : المفردة.

4.1 المطلب الأول : المفردة لغة واصطلاحاً.

المفردة لغة : جاء في مختار الصحاح: " ف. ر. د: الفرد الوتر والجمع أفراد وفُرَادى بالضم على غير قياس كأنه جمع فردان"²⁶، وقال صاحب المصباح المنير: " ف ر د: الفرد الوتر وهو الواحد والجمع أفراد"²⁷.

ومن التعريفين السابقين نستنتج:

1- المفردة تقابل الوتر وهو الواحد وهي ضد التثنية أو الجمع.

المفردة اصطلاحاً :

المفردة جمعها مفردات، ودلالة هذه اللفظة في اللغة تعني الوحدة الذي هو ضد الجمع و التركيب، فالمفردة ما كان وحده، وتدل في "الاصطلاح على القول المفرد، والمراد بالقول اللفظ الدال على معنى...والمراد باللفظ الصوت المشتمل على بعض الحروف،

سواء دل على معنى كزيد أو لم يدل كديز مقلوب...والمراد بالمفرد مالا يدل جزؤه على جزء معناه وذلك نحو زيد فإن أجزاءه، وهي الزاي والياء والدال إذا أفردت لا تدل على شيء مما يدل عليه بخلاف قولك غلام زيد".²⁸

والمفردة تلتقي مع الفرد و الإفراد و المفرد و الفردية و الجوهرة الفريدة و الإنفراد، وتدل على العدد الواحد وهذا كله نقيض التثنية و الجمع"²⁹.

ومما سبق يمكن القول: إن المفردة هي المجموعة الصوتية التي تدل على معنى واحد، و هذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأولي في بناء النظم و الوحدة المكونة له، فلا يمكن استغناء أحدهما عن الآخر وهي عكس التثنية أو الجمع.

المبحث الثالث : نماذج وتطبيقات

المثال الأول : أثر تعريف لفظ " البلد " وتنكيره "بلدا" في المعنى.

يبين صاحب ملاك التأويل الأثر المترتب عن تعريف البلد وتنكيره في الآيتين فيقول: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ءَامِنًا﴾ البقرة: 126، وفي سورة إبراهيم: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا □ ءَامِنًا﴾ إبراهيم 35، فنكر إبراهيم في سورة البقرة وعرف في سورة إبراهيم بأداة العهد فيسأل عن ذلك.

ووجهه والله أعلم أن اسم الإشارة الذي هو "هذا" في سورة البقرة لم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِّنًا﴾ البقرة: 125، وقوله تعالى : ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة: 125، وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد لا سيما بما تقدم من

قول إبراهيم عند نزوله بولده بحرم الله ودعائه أولاً بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إبراهيم: 37. فتعريف البيت تعريف للبلد فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنس كالجاري في أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب بلداً مفعولاً ثانياً وآمناً نعتاً له واسم الإشارة مفعولاً أولاً غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بيانا زائداً على ما تحصل مما تقدم بل كان يكون كالتكرار.

فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه، فجاء على ما يجب.

وأما سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه، فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد في الغالب عطف بيان على قول الخليل، أو نعتاً على الظاهر من كلام سيبويه، وانتصب اسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول و"آمناً" على أنه مفعول ثان ولم يكن عكس الوارد ليحسن ولا ليناسب وقيل في الوارد سورة البقرة أنه أشار إليه قبل استقراره "بلداً" فأراد جعل هذا الموضع أو هذا المكان بلداً آمناً واكتفى عن ذكر الموضع بالإشارة إليه واسم الإشارة على هذا مفعول أول و"بلداً" مفعول ثان و"آمناً" نعت له، وأشار إليه في سورة إبراهيم بعد استقراره "بلداً"، فجري البلد على اسم الإشارة نعتاً له وآمناً مفعول ثان قاله صاحب كتاب الدرة وهو عندي بعيد إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي وهو بعد ممكن والله أعلم³⁰.

ومعنى كلام الغرناطي أن تنكير البلد في سورة البقرة مرجعه أن حقيقة البلد لم تكن موجودة أصلاً، التي تسكنه الخلائق وتعمّره، فجاءت دعوته أن يجعل من ذلك البلد الموحد بلداً مؤنساً، فكانت هذه دعوته الأولى، بخلاف سورة إبراهيم فتعريف البلد كان مقصوداً؛ أي بعد استجابة الله لدعاء إبراهيم بعد أن صير ذلك الوادي الموحد إلى بلد مؤنس تعمّره الأنفس، ففرق واضح بين الدعوتين وبين البلدين في الأولى والثانية.

ويذكر صاحب نظم الدرر مخرج بلاغي لتكثير البلد وتعريفه فيقول: "ولما كان السياق للمنع من المسجد وللسعي في خرابه وكان ذلك شاملا بعمومه للبادي، ولذلك قرر أنه مثابة للناس عامة وأمن كان الأنسب تكثير البلد فقال: "بلدا"، يأنس من يحل به"³¹.

ويسترسل صاحب درة التنزيل في ذكر الحكمة من تعريف البلد وتنكيره فيقول: "وللسائل أن يسأل فيقول: لم كان في سورة البقرة بلدا نكرة، وفي سورة إبراهيم معرفة؟ والجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما: أن يقال: أن الدعوة الأولى وقعت، ولم يكن المكان قد جعل بلدا، فكأنه قال: رب اجعل هذا الوادي بلدا آمنا... والدعوة الثانية وقعت، وقد جعل الوادي بلدا"³².

ويضيف صاحب صفوة التفاسير لطيفة أخرى فيقول: "حكمة تعريف البلد هنا ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾، وتنكيهه في البقرة: ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾، أنه تكرر الدعاء من الخليل، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله تُجعل بلداً، وأن تكون أمناً، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمناً أي بلد آمن واستقرار، وهذا السر في التفريق بين الآيتين³³.

ومما سبق يتبين لنا الغرض البلاغي من تعريف لفظ البلد وتنكيهه بوضوح، فالتعريف والتنكير لم يكن اعتباطا بل مقصودا ليحقق معنى كامنا في كل منهما، وهو ارتباط الدعاء بالبلد تعريفا وتنكيها؛ فالتنكير مُرتبط بدعوة إبراهيم الأولى، عندما أودع ابنه الرضيع والوحيد آنذاك إسماعيل عند البيت المحرم، وكان البيت في مكان قفر موحش، أما الدعوة الثانية فقد جاءت بعد أن أصبح المكان عامرا بالناس وزاره إبراهيم عليه السلام للمرة الثانية ورفع القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل بعد أن كبر فجاء تعريف البلد موافقا للتغير الذي حل به من موحش إلى مؤنس، وكل ذلك راجع إلى التعريف والتنكير الذين حققا هذه المعاني البلاغية.

المثال الثاني: أثر تعريف لفظ "الكذب" وتنكيره "كذبا" في المعنى.

يُبين صاحب التّأويل الأثر المترتب عن تعريف الكذب وتنكيره في الآيتين فيقول:

٢١ "قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ ۖ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

﴿ الأنعام: 21، وفي سورة الصف: قوله تعالى: ﴿...﴾ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾
الصف: 07. فتعريف الكذب في سورة الصف وتنبه فيها عداها.

ليخصص اليهود لأنهم أهل كذب وتكذيب للرسل، وهذا التخصيص الغرض منه تقييعهم وتوبيخهم.

ويسترسل صاحب درة التنزيل في ذكر الفرق بين اللفظتين تعريفا وتنكيلا فيقول: "إن الكذب مصدر يسعى به الكلام المكذوب فيه، وهو في قوله تعالى: ﴿افترى على الله كذبا﴾، على أصله، مصدر غير منقول، والمصدر إذا عُرِف قُصِد به الجنس، والفرق بين معرفته ونكرته إذا قال القائل: قلت كذبا، أي: قلت نوعا من أنواع الكذب التي هي كثيرة...وأما تعريفه في سورة الصف فلأن القصد الإشارة إلى ذلك الكذب، وهو تكذيب اليهود بأيات الله والرسول-عليه الصلاة والسلام-"³⁵، ومعنى ذلك أن تعريف الكذب في سورة الصف هو مخصوص باليهود أي كذب خاص، أما تنكيهه فيشمل جميع الكذب سواء كان في القول أو الاعتقاد.

ويؤيد هذا التخريج، صاحب أسرار التكرار في القرآن فيقول: "قوله" ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بالألف واللام في غيرها ﴿افترى على الله كذبا﴾ بالنكرة لأنها أكثر استعمالا في المصدر في المعرفة وخصت هذه السورة بالمعرفة لأنه إشارة إلى ما تقدم من قول اليهود والنصارى"³⁶

وعليه: "المراد بآية الصف كذب خاص وهو جعلهم البينات سحرا، والمراد في بقية المواضع: أي كذب كان"³⁷

فلما كانت اليهود معروفة بالكذب خصهم الله بالتعريف والتخصيص توبيخا وتقييعا لهم، بخلاف تنكير الكذب فهو خاص بأي شخص سواء كان من اليهود أو الكفار أو غيرهم فهو أي كذب.

المثال الثالث: أثر تعريف لفظ "المعروف" وتنكيهه "معروف" في المعنى.

يبين صاحب ملاك التأويل الأثر المترتب عن تعريف المعروف وتنكيهه في الآيتين فيقول "قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ □ ﴿٣٩﴾"

البقرة: 234، وفي الآية الأخرى قال تعالى ﴿... فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ □ □ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة 240.

فالأول: ما وجه التعريف في قوله بالمعروف والتذكير في الثانية في قوله من معروف؟
والجواب عن الأول: أن الواقع في الآية الأولى من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ البقرة: 234.

ثم قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي باستيفائهن أربعة أشهر والعشر والمراد يخرجن عند ذلك من تمام الأجل المضروب لعدتهن فهذا كله بما تقتضيه إذا قد أحرز أمدا محدودا معلوم القدر معروف الغاية يتقيد به خروجهن فناسبه التعريف في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ □ □﴾ الآية، لأن المعلوم من موجب الشرع³⁸.

ويذكر صاحب البرهان غرضا آخر في التعريف والتذكير فيقول: "في البقرة ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ □ □﴾ الآية، وذلك لأن ما يقع على فرد واحد من أنواع ينفصل بها المعروف في الوجود وعلى البدلية أو الجمع يدل على ذلك تنكيهه المعروف، ودخول حرف التبعية عليه فهو حسي... وأما قوله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ □ □﴾ الآية، فهذا موصول لأن ما واقعة على شيء واحد غير مفصل بذلك عليه وصفه بالمعروف³⁹".

المثال الرابع: أثر تعريف "السميع العليم" وتنكيهه "سميع عليم" في المعنى.
يبين صاحب ملاك التأويل الأثر المترتب عن تعريف "السميع العليم" وتنكيهه في الآيتين فيقول "قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ □ □﴾ الأعراف 200، وفي سورة فصلت قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ □ □﴾ فصلت 36، فوردت الصفتان في سورة الأعراف على

طريقة التنكير ووردتا في السورة الأخرى معرفتين وزيد قبلهما الضمير الواقع فصلا فقيل: "إنه هو" وللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتنكير؟...

"والجواب: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف ألهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وُتخو بعبادتها في قوله في موضع آخر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، فوصفت هنا بأنها لا تخلق شيئا ولا يستطيعون لهم نصرا وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فنفي عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشي وآلة البطش في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ الأعراف: 195.

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلا عما فوق ذلك فوردت الصفتان بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ موردا لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدع فيستدعي ذلك التوهم مفهومًا ينفيه فجاء على ما يجب.

أما آية فصلت قوله تعالى: ﴿وَقِيَصَّبْنَا لَهُمْ فُرْنَاءَ فَرَزُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فصلت: 25، وقوله تعالى: ﴿أَوَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ الحن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴿٢٩﴾ فصلت: 29.

فحصل من هذا أن مضلهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكر في الأعراف فلما تقدم في سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص فقوى المفهوم المسعى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب فصار الكلام في قوم أن لو قيل: الله هو السميع العليم لا غيره وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه ولم يكن ورود ما في سورة الأعراف من التنكير ليناسب الوارد متقدما في سورة السجدة ولا التعريف الوارد في الصفتين العليتين في سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم⁴⁰.

ومعنى كلام الغرناطي أن كل من تعريف "السميع العليم" وتنكيره "سميع عليم" مرتبط بغرض حدده السياق وجاء ليحقق الغرض من ذلك، فالتنكير ارتبط سياقه بذكر الآلهة التي عبدت من دون الله، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تبطش... فناسب التنكير العجز والنقص الموجود في الآلهة، فهي نكرة في كل شيء، بخلاف التعريف فسياق الآية التي وردت فيها اللفظة مرتبطة بذكر أمة تسمع وترى وتعقل؛ وهي أمة الإنس والجن فوافق التعريف حالهم.

ويذكر صاحب غرائب التفسير وعجائب التأويل لطيفة في تعريف وتنكير "السميع العليم"، فيقول: "سؤال: لما قال هنا ﴿سميع عليم﴾، وقال في حم السجدة: ﴿إنه هو السميع العليم﴾، فزاد هو والألف واللام فيها، الجواب: لأن قوله: ﴿سميع عليم﴾، في هذه السورة خبر المبتدأ وشرط الخبر أن يكون نكرة على الأغلب، وفي حم تكرر لما في هذه السورة، والنكرة إذا تكررت تعرفت"⁴¹.

وذكر صاحب معترك الأقران نفيسة لتعريف "السميع العليم" وتنكيره ، فقال: وفي فصلت: ﴿السميع العليم﴾، لأنها نولت ثانية فحسن التعريف، أي هو السميع العليم الذي تقدم ذكره عند نزوغ الشيطان"⁴².

ومما سبق يظهر الأثر البلاغي من تعريف "السميع العليم" وتنكيره "سميع عليم" بوضوح، فالتعريف والتنكير جاء ليحقق غرضا بلاغيا، ولم يظهر هذا الغرض البلاغي إلا عن طريق تعريف وتنكير اللفظتين، فكل منهما يحملان معان كامنة، حددها السياق والمقام، فسياق التنكير ودلالته على الآلهة التي لا تسمع ولا تبصر ناسبه تنكير "سميع عليم" بخلاف دلالة التعريف "السميع العليم" فسياق الآية مرتبط بذكر أمة تسمع وتعقل وهي أمة الجن والإنس، فناسب التعريف هذا المقصد السياقي من الآية.

وعليه فالسياق والمقام يحددان ويؤثران في تعريف المفردة القرآنية وتنكيرها حسب الغرض الذي يريد القرآن تأديته .

4. خاتمة:

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبعد إتمام البحث بفضل الله سبحانه وكرمه، أذكر أهم النتائج التي ظهرت لي من خلال هذا البحث منها:

- أن أسلوب التعريف والتنكير في القرآن الكريم بصفة عامة، وتعريف وتنكير المفردة القرآنية بصفة خاصة، من أضرب إعجاز القرآن الكريم، بل هو من أسى بلاغته وأعلى طبقاته التي هي وجه من وجوه البلاغة البيانية المعجزة التي لم يوجد لها نظير.

- التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتماثلة في القرآن الكريم يعطي النص جمالاً، ويُكسبه بهاء، ويشحذ فكر السامع للاستنباط، وهذا أحد أساليب القرآن في لفت الانتباه.

- ظاهراً المفردات القرآنية المتشابهة، "الكذب" و"كذب" و"السميع العليم" و"سميع عليم" يدل على معان محددة، لكن مع إبراز الأثر المترتب عن التعريف والتنكير في المفردة القرآنية في المعنى يعطي معنى أَدق، وتأكيداً أعمق في مقصود المفردتين في الآية ومراميها.

- أن هناك أثراً لكل من التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتشابهة، لذا لا يزال البحث في هذا الباب واسعاً متجدداً، لأن معاني القرآن لا تُنضَّب، وهذا من دلالات إعجازه.

- الضابط الذي يضبط التعريف والتنكير في المفردات القرآنية المتشابهة هو السياق القرآني المعجز، فهو الذي يُشير إلى تعريف المفردة أو تنكيرها، فيكون الأنسب من حيث الأسلوب و المضمون تعريف المفردة، لأن هذا يتفق مع سياقها المعنوي والتعبيري، وقد يكون الأنسب تنكير المفردة المتشابهة؛ لأن هذا التنكير يتفق مع السياق الآخر التعبيري والمعنوي.

وفي ختام البحث نرجو أن يتم:

- 1- تصنيف مصنفات مستقلة تحوي فنون البلاغة المتعلقة بالجانب البلاغي للقرآن الكريم، كالتعريف والتنكير مثلاً، أو الذكر والحذف... وإعطائه حيزاً كبيراً من الجمع والشرح والتحليل؛ مصنفات تجمع آراء القدامى مع المعاصرين وتعمل على إعطاء وجه جديد من التذوق البلاغي.
- 2- الاهتمام بكل ما له علاقة بالإعجاز القرآني والعمل على تنميته وتقويته وتقديمه للقارئ في أحسن حلة.

*** ** *

5. الهوامش:

- 1 محمد شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، ط1، القاهرة، 2008، ج1، ص214.
- 2 الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، ج3 ص135، (مادة عرف).
- المصدر نفسه، ج3 ص136.
- 4 ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د.ط، القاهرة، د.ت، ص2897، (مادة عرف).
- 5 علي بن محمد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، ط1، القاهرة، 1973، ص56.
- 6 ابن مالك جمال الدين الأندلسي، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمان السيد- محمد بدوي المختون، دار هجر، ط1، مصر، 1990، ج1 ص115.
- 7 المصدر نفسه: ج1 ص115.
- 8 عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة، ط3، مصر، 2000، ج1 ص620.
- 9 محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، دط، تونس، 1984، ج9 ص329.
- 10 عبد المتعال الصبيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط17، القاهرة، 2005، ج1 ص78.
- 11 عبد الكريم بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، ج2 ص492.
- 12 عباس حسن، النحو الكافي، دار المعارف، ط15، مصر، د.ت، ج1 ص373.
- 13 محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، ط7، القاهرة، د.ت، ص211.
- 14 المرجع السابق، ص212.
- 15 المرجع نفسه، ص210.
- 16 المرجع نفسه، ص211.
- 17 ابن منظور، لسان العرب، ص4539، مادة نكر.
- 18 الخليل الفراهيدي، العين، ج4 ص264، مادة نكر.
- 19 عثمان بن جني، اللّمع في العربية، تحقيق سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، دط، عمان، 1988، ص76.
- 20 ابن مالك، شرح التسهيل، ج1 ص115.
- 21 الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص206.
- 22 محمد بن عبد الرحمن جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، ط3، بيروت، 1993، ج2 ص35.
- 23 المصدر نفسه ج2 ص37.

- 24 احمد مطلوب احمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1980، ص158.
- 25 ناصر مكارم شيرازي، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، مطبعة أمير المؤمنين، ط4، إيران، دت، ص219.
- 26 محمد بن أبي بكر الرّازي، مختار الصحاح، ج1 ص236.
- 27 أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، دط، بيروت، دت، ج2 ص466.
- 28 عبد الله بن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تح: محمد عبد الحميد، ط11، القاهرة، 1383هـ، ص11.
- 29 احمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، ط2، دمشق، 1999م، ص19.
- 30 أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2006، ج1 ص50.
- 31 إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب السور، دار الكتاب الإسلامي، دط، القاهرة، 1984، ج2 ص155.
- 32 محمد بن عبد الله الأصهباني، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى أيدين، جامعة أم القرى، ط1، 2001، ج1 ص283.
- 33 محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر، ط1، مصر، 1997، ج2 ص95.
- 34 أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل، ج1 ص149-150.
- 35 محمد بن عبد الله الاصهباني، درة التنزيل وغرة التأويل، ج1 ص1273.
- 36 محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، دار الفضيلة، دط، القاهرة، دت، ص236.
- 37 محمد بن إبراهيم بن سعد الله، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تحقيق: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، ط1، مصر، 1990، ص356.
- 38 أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل، ج1 ص69.
- 39 بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، بيروت، ج1، 1957، ص420.
- 40 أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه للفظ من أي التنزيل، ج1 ص224.
- 41 محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلية للثقافة الإسلامية، جدة- مؤسسة علوم القرآن، دط، بيروت، دت، ج1 ص431.
- 42 عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1988م، ج1 ص72.